ملامح نظّرية الأرسوزي اللغوية وأبعادها النهضوية

الدكتور حسين علي محافظة* **الدكتور محمد ماجد الدّخيل***

الملخص

تناولت هذه الدراسة الحديث عن منزلة اللغة العربية في مؤلفات زكي الأرسوزي ودورها في النهضة العربية الحديثة من خلال أصول فلسفته المثالية المستمدة من كشف أسرار اللغة العربية وفكرة العروبة بمختلف أبعادها النهضوية من جهة، وربطه لها بمفهومي الأمة والقومية وتعلّقها بمفاهيم نهضوية: كالحرية والعدالة والتربية والأخلاق من جهة أخرى، وأظهرت الدراسة أصالة اللغة العربية وقدرتها على التعبير عن الأحاسيس والمشاعر الإنسانية بأدق معانيها وأبهى صورها، وتجلّى ذلك في الحديث عن جذور الكلمة العربية واشتقاقها وشعريتها وبلاغتها؛ لتوظيفها في الإبداع الفكري القومي بخاصّة، والفكر الإنساني بعامّة.

* الأردن– جامعة البلقاء التطبيقية– كلية إربد الجامعية

* الأردن– جامعة البلقاء التطبيقية– كلية إربد الجامعية

ملامح نظّرية الأرسوزي(*)اللغوية وأبعادها النهضوية

مقدمة

تعد اللغة العربية من أقدم اللغات وأفصحها، كما تعد الرابطة الأولى التي رسمت إطار الثقافة والهوية العربية ورسخت قيم الأمة ومعالم شخصيتها عبر التاريخ. وحديثاً لم يختلف المفكرون العرب القوميون على منزلتها ودورها في نشوء الوعي القومي وتطوّره وتنميته؛ لإدراكهم أنها الملاذ الذي يصون شخصية أمتهم من جهة، والقاعدة المتينة لوحدتها وتطلعاتها النهضوية من جهة أخرى.

إن إظهار منزلة اللغة العربية ودورها في تكوين الفكر القومي ينطوي على دلالات عديدة لعل أبرزها استفزاز كمون هذا الفكر وتكريس إبداعاته. من هنا ارتأت هذه الدراسة أن يكون اهتمامها منصباً حول بعض ملامح نظرية الأرسوزي في اللغة العربية كونه أحد أبرز رواد الفكر القومي، وأحد قادة تياراته المشهور بالتيار المثالي أو الرومانسي.

وإن أسباب اختيار الأرسوزي موضوعاً لدراسة لغوية نهضوية تكمن في أن هذا المفكر استطاع من خلال نشاطه التربوي والسياسي والثقافي طوال أكثر من نصف قرن أن يشدّ الانتباه بقوة إلى أهمية اللغة، وأن يقيم مرجعية نظرية للحركة القومية العربية في أشد مراحل تاريخها خطورة وأكثرها تعقيداً بسبب الاحتلال الأجنبي وما فرضه من تجزئة وتخلف.

إن ما كتبه الأرسوزي حول اللغة يأتي في غاية الأهمية من حيث البُعد النظري من جهة، والبعد التطبيقي من جهة أخرى؛ إذ استحوذت على معظم مؤلفاته وبحوثه، وتأكيده

(*) هو زكي نجيب إبراهيم الأرسوزي، (1900– 1968م) وهو مفكر ورائد من رواد الفكر القومي العربي أمضى حياته في النشاطات التربوية والسياسية والثقافية، وللمزيد عن حياته وأعماله ينظر: لجنة تخليد ذكرى زكي الأرسوزي، مقدمة المؤلفات الكاملة، المجلد الأول، ص 5–35، وكذلك العدد الخاص من مجلة المعرفة السورية، رقم13، دمشق، 1971م، وخليل أحمد: زكي الأرسوزي دور اللسان في بناء الإنسان، دار السؤال للطباعة والنشر، دمشق، ط2، 1981م، ص21، وما بعدها.

المستمر على عامل اللغة كمرتكز للنهضة مارسه منذ بداية حياته، ومن منهجية خاصة ميزته عن مفكري عصره أمثال: ساطع الحصري (1880–1968م)، ومحمد عزّة دروزة (1888–1984م)، وقسطنطين زريق (1909– 2000م) وغيرهم.

أولاً: اللغة العربية في مؤلفاته

رأى الأرسوزي – وهو في طور الشباب– أن حرية الأمة ووحدتها هما الشرطان الأساسيان لقيام نظام تربوي سليم وبناء وحدة قومية شاملة، وقتئذ أهتم بالسياسة، وساهم في قيادة الحركة الوطنية التحررية ضد الأتراك والفرنسيين في لواء الإسكندرونه أولاً، ولاحقاً في كل مناطق وطنه (سوريا)، وعمل على شرح منطلقاته الفكرية للجيل العربي، الذي تمثّل له بصورة النواة التي تتفجر طاقاتها داخل الوطن العربي كله، وتبعث روح الأمة؛ لاستعادة أمجاد ماضيها، وكان مبشراً بروح المؤاخاة والمودة بين مكونّاتها الاجتماعية المتنوعة الإثنية والطائفية والمذهبية تحت لواء العروبة، وكان رافعاً لمستوى الوعي وتكتل الجماهير، ومُحرِّضاً على مقاومة الاستعمار، فكانت نشاطاته الثقافية منبراً لبث الوعي القومي التحرري، وقد أزعجت المستعمر وأربكته، وفي تأسيسه لنوادٍ ومنظمات سياسية، مثل: عصبة العمل القومي، وتأسيس حزب البعث العربي، وإنشاء جريدة العروبة قدّم أعمالاً، صبّت في مصلحة أُمَّته ونهضتها[1].

وحينما عكف على شرح أصول مساق الفلسفة من خلال تدريسه لها في المدن السورية انكب على دراسة معاجم اللغة العربية يتأمل في تنظيم المعجم العربي وتصنيفه واكتشاف أسراره، فظهرت عنده فكرة "العروبة" بمختلف أبعادها، كامنة بين المفردات

(1) ينظر: لجنة تخليد ذكرى زكي الأرسوزي: المؤلفات الكاملة، المجلد الأول، ص30، وكذلك، بركات، سليم: الفكر القومي وأسسه الفلسفية عند زكي الأرسوزي، جامعة دمشق، ط1، 1979م، ص 26–28، ص 30– 31.

كالروح في الجسد، فألّف عام 1943م كتاباً اسمه "العبقرية العربية في لسانها"، الذي شرح فيه معظم جوانب فلسفته القومية[1].

ولم يتوقف عند حدّ التعليم قبل تقاعده عام 1959م وبعده فكان يبث أفكاره، ويلتقي طلابه ومثقفي وسياسي سوريا والعرب بشكل مستمر، وكذلك استأنف التبشير برؤيته القومية التي غدت واضحة في مراميها النظرية من جهة، وفي أبعادها السياسية من جهة أخرى[2].

ورغم مرضه الشديد أواخر حياته ظل يبث فكرة العروبة وفلسفتها إذ قال: "للعرب فلسفة كاملة قائمة في ثنايا لغتهم، لم يعبِّر عنها حتى الآن أي مفكر آخر تعبيراً كلياً، إذ إن أحداً منهم لم ينتبه إلى أن الطريقة التي تؤدي إليها يجب أن تستند إلى فهم نظام اللغة العربية بما لها من قوة بيانية خاصّة تُبدْع لكل معنى من المعاني الوجودية الكبرى صورةً تستقطبه وتؤديه بأمانة"[3].

كما قدّم إجابة على إشكالية نشوء اللغة ذاتها إجابة قاطعة، فقال: "أهي موضوعةٌ من قبل العقل وفق عُرفٍ متفق عليه؟ أم هي موحاةٌ وحياً من السماء؟ وأجاب أنها مسألة عقل في أرقى تجلّياته المستند في انتشاره إلى الكلام، إذ إن وضع اللغة على ما فيها من تنسيق ونظام يتطلب عقلاً بمنتهى الكمال،" وأكد على أن ما يُميّز الكلام العربي عن غيره هو احتفاظه بجذوره المتصلة بالأصوات الطبيعية منذ ظهور الإنسان حتى الآن".[4].

وتحّدث –كذلك– عن تصالب الصوت والخيال المرئي في الكلمة العربية، اللذين ينتجان أمرين: أولهما فقدان المترادفات، والأمر الآخر هو الاختلاف في التطور بين

(1) بركات، سليم: الفكر القومي وأسسه الفلسفية عند زكي الأرسوزي، ص35.
(2) المؤلفات الكاملة، المجلد الأول، ص 5–30.
(3) المصدر السابق، ص32.
(4) المؤلفات الكاملة، المجلد الأول، ص 45.

الكلمة العربية وغيرها... فهي تتألف من صورة صوتية ومن خيال مرئي ومن معنى هو قوام تآلفها..." [1].

ونشر الأرسوزي رسالة عنوانها "اللغة العربية" عام 1953م في مجموعة رسائل البعث العربي[2]، ركّز فيها على أن اللسان العربي إذا دُرس دراسةً توليديةً هدى العرب إلى استجلاء "آية الأمة العربية" التي أنشأته تعبيراً عن ذاتها، فأودعت فيه تجاربها، ورسمت بمنحنياته سماتها، حتى أصبح منها كالجسد من النفس[3]، هداهم –أيضاً– "إلى إنشاء ثقافة إنسانية نامية، أصولها في الطبيعة ورائدها الملأ الأعلى"[4].

وقارن بين اللسان العربي واللغات الأوروبية ليُظهر تميّزه أي (اللسان العربي)، بكونه مجموعة من الركائز الصوتية التي يستند إليها الذهن في سيره إلى الحقيقة، وهو ذو بنيان عضوي تنم فيه الكلمة عن المعنى... ممّا يجعل صاحبه أكثر استعداداً من غيره لفهم الأخلاق والديانة[5]. بينما يتجه الذهن الأوروبي، في دراسة اللغة، إلى نهج العلم في دراسة الحوادث الطبيعية؛ فينصرف إلى قوانين الصوت التي تكشف عن تأثير التداعي بالاقتران[6].

وخلص إلى أن دراسة اللسان العربي تستلزم اتجاهين: اتجاه الصوت في الأصول والبيان والإيقاع. واتجاه المعنى الذي يتناول الحدس ومغزى القواعد النحوية؛ لإيضاح مغزى العقلية العربية ومراميها في الحياة[7].

---

(1) المصدر السابق، ص45

(2) المصدر السابق، ص 35، 48.

(3) المصدر السابق، ص 233_234.

(4) المصدر السابق، ص 234، يُنظر كذلك، ص 300.

(5) المؤلفات الكاملة، المجلد الأول، ص 253.

(6) المصدر السابق، 260، 245_55.

(7) المصدر السابق، ص 387.

وفي عام 1963م نشر كتاباً عنوانه "بعث الأمة العربية ورسالتها إلى العالم – اللسان العربي– كرّر فيه ما كتبه عن اللغة ذاتها (نشأتها– طبيعتها– دورها)، مُفضّلاً استعمال كلمة اللسان بدلاً من اللغة؛ لأنها ليست الكلمة اللائقة، إذ أرجعها إلى اللغو أو البربرة[1]. فدلل بهذا الطرح على عمق تفكيره وأصالته، وهذا يؤسس لحماسه الشديد صوب اللغة كرابطة للقومية وقاعدة للثقافة.

إن ما يُميِّز الأرسوزي عن بقية مفكري عصره أنه آمن إيماناً يقينياً بأنّ فلسفته القومية نضجت في ذهنه دفعة واحدة، وسمت سُمّواً مِثالياً نموذجياً خصوصاً حينما درس المعجم العربي وتفكّر في منهجيته وتنظيمه وبيان ميزاته عن المعاجم الغربية، الذي يُضيف المفردات العربية إلى تسلسلها الأبجدي كما هو معلوم. أما المعجم الغربي فيضع كل كلمة مع مجموعتها المَعّبر عنها في المصدر. وهذا الفارق يعكس نمط عقليتين متقابلتين: العقلية العربية من جهة، والأوروبية من جهة أخرى[2].

ودرس الأرسوزي كتب قواعد اللغة العربية، فرأى أنها مُكملة للمعجم حيث إن التأليف بينهما، أي (المعجم والقواعد) يكشف عن فلسفة متجذرة هي الفلسفة العربية المُدّغمة في لسانها[3]؛ وبالتالي فإنه كشف جذور تلك الفلسفة بحيث إن مجموع كتبه ودراساته ورسائله ومقالاته سواء أكان فيما كتبه عن اللغة ذاتها أو عن الفنّ أو عن السياسة أو الدولة... إلخ، لم تكن سوى توضيح لجذورها، أو ما سمّاه "الحدس الأول"، وإذا كان ثّمة تطّورٍ فهو ضئيل يرتد إلى تقديم كلمة أو إبدال لفظة، وهذا التطوّر يماثل –في نظره– نمو الكائن الحي ورقيه[4].

(1) مقدمة المؤلفات الكاملة، المجلد الأول، ص 387.

(2) المصدر السابق، ص (ج).

(3) المصدر السابق، ص 36 وما بعدها.

(4) مقدمة المؤلفات الكاملة، المجلد الأول، ص 36 وما بعدها.

إن سيرته العلمية والعملية – كما ظهر –حافلة بالنشاط النابع من إخلاص شديد للأمة العربية التي أحبها في لغتها وآدابها وتاريخها، وقد رسم للفكر القومي ملامح طريقة جديدة دالة على إمكانية الانبعاث والنهضة والتقدم.

ثانياً: الربط بين اللغة ومفهوم الأمة والقومية

ظهرت فكرة القومية لتجسّم عودة الوعي العربي من جهة، وتنبهه في مواجهة تحديات الاستبداد والاستعمار، في إطار الرغبة بالنهضة والتقدّم الحضاري من جهة أخرى؛ من هنا انصب اهتمام رواد الفكرة، ومنهم الأرسوزي على إيضاح مفاهيم الأمة والقومية وبلورتهما بهدف إنشاء فلسفة قومية شاملة (عقيدة) لاتخاذهما وسيلة للنهضة[1].

وقد رأى الأرسوزي أن الأمة والقومية واضحتان، فالأمة كلمة مشتقة من كلمة الأم، والأم هي الصورة الحية للأمة، وأما القومية فهي كلمة مشتقة من القوم وهي رابطة بين ذوي القربى[2]. وأنهما (أي الأمة والقومية) ظاهرتان موجودتان منذ الأزل أو منذ فجر التاريخ، وهما من المفاهيم الكامنة كمون البذرة في الأرض"[3]، وكلما أتيح للبذرة البيئة المناسبة نمت وتطوّرت وأثمرت، لكن مشكلتها تكمن في قوة أعدائهما الذين يعيقون تطورّهما الطبيعي. وضرب مثلاً على ذلك بالاحتلال الفرنسي لسوريا، وأن هدفه الحيلولة دون تطوّر الأمة العربية كلها، عندما كانت تقوّي النزعات الطائفية والمذهبية والإقليمية، وتشيع ثقافة الانطواء والتقليد والهزيمة[4].

(1) يُنظر حوراني، ألبرت: الفكر العربي في عصر النهضة، دار النهار للنشر، بيروت، 1977م، ص375، كذلك، الدوري، عبد العزيز: التكوين التاريخي للأمة العربية (دراسة في الهوية والوعي) مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 1984م، ص 163 وما بعدها.

(2) المؤلفات الكاملة، المجلد الرابع، ص213. وينظر: بركات، سليم: الفكر القومي وأسسه الفلسفية عند زكي الأرسوزي، ص 107 وكذلك ص 165 وما بعدها.

(3) المصدر السابق، المجلد الأول،ص236.

(4) محافظة، علي: موقف فرنسا وألمانيا وإيطاليا من الوحدة العربية، (1919–1945)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1985م، ص 143–144.

وبحث الأرسوزي – أيضاً– عن جذور القومية، واكتشف أن الأمة سابقة على شعورها القومي، فهي "ينبوع الشعوب السامية كافة، وهي عالم بذاتها، وهي أمة طاهرة نقية، ومثلها كمثل السديم ذاته (أصل الوجود) يتكاثف حيناً ثم يتناثر بعد حين فتنجم الشموس عن تكاثفه ثم ينتهي بتناثرها في الأثير. وكذلك الأمة العربية فإنها أبداً مشرقة بنورها على الإنسانية"[1].

وفي حديثه عن ماهية الأمة ومنزلة اللغة في تكوينها أثار تساؤلات ثلاثة هي: 1– أهي مفهومٌ يبنيه الذهن تعبيراً عن وضع ثقافي مدني نشأ في التاريخ؟ 2– أم هي آيةٌ أصولها في الملأ الأعلى تتحقق باندراج تجلياتها في المكان والزمان؟ 3– أهي عبقريةٌ مبدعةٌ أم بنيانٌ متلازم في المظاهر بالتداعي؟[2].

إن مفهوم الأمة – لديه – يتسامى للسماء، ويرتبط ارتباطاً شديداً بالملأ الأعلى، ويتمتع بهالة من القدسية؛ وتتجلّى قُدسية الأمة ومثاليتها برسالتها المتمثلة في إنشاء المدنيّة، وتثبيت قواعد الثقافة الإنسانية[3]. وهذا يكشف اتجاهاتها نحو التحرر والحرية بمفهومهما الشامل، كما يؤكد نزعة التسامح والبعد عن المغالاة والتعصب؛ فهي "أمة وسط" بين الأمم، مثلها في ذلك مثل الابن البكر في العائلة[4].

وأظهر الأرسوزي في المقابل الآخر صورة الأمة المتخلّفة ومضارها على تاريخها ومستقبل أبنائها، فقال: "فالأمةُ التي تخضع لمشيئة غيرها، تتلقى منه قواعد فكرها وعملها يُمسخ أبناؤها.." [5]. ويُضيف أن الأمة التي تفقد استقلالها حينما تتخلّى عن مقدساتها فتزول حكمة وجودها، وأما أبناؤها فلن يبرروا تخاذلهم بالغفلة أثناء المحنة (الاستعمار) إلا حين يغسلون عارهم بدمائهم"[6].

(1) المؤلفات الكاملة، المجلد الثاني، ص246.
(2) المؤلفات الكاملة، المجلد الثاني، ص334.
(3) سليم، بركات، الفكر القومي وأسسه الفلسفية عند زكي الأرسوزي، ص 209.
(4) المؤلفات الكاملة، المجلد الثاني، ص 375.
(5) المؤلفات الكاملة، المجلد الأول، ص 283.
(6) المؤلفات الكاملة ، المجلد الثاني، ص 283.

وهكذا يظهر أن مقوّمات الأمة تتكوّن من الشعور والوعي أولاً، ثم القدرة على التحرر العقلي والنفسي، وبناء الحياة المشتركة الموحدة والعصرية. في حين رأى "الحصري" أن القومية ظاهرة اجتماعية تربط الفرد بالجماعة، وتتأسس على روابط نفسية وعاطفية، تتمثل بوحدة اللغة والتاريخ، وقد فضّل الأولى على الثانية، إذ اللغة عنده "هي أهم الروابط، وهي روح الأمة وحياتها، وهي محور القومية وعمودها الفقري[1]. في حين أن "زريق" رأى أن القومية الحقة "ليست دعوة سياسية فحسب، بل هي حركة شاملة لحياة الشعب كله، تعمل على تحريرها من الأسواء الداخلية والخارجية معاً، وإلى نقل أوضاعها من مواقع التخلف والانفعال والتبعية إلى مرامي التّقدم والسيادة"[2].

وانحصرت إشكالية القومية لدى الأرسوزي –مبدئياً– في عاملين أساسيين هما: "موقع بلادنا في الدنيا، وما حمّلنا التاريخ من أعباء، بل ترجع إلى ما نتج من هذا وذاك من فتور في الهمة واختلاف في الموقف إزاء المصائب العامة"[3]، وقصد الاستعمار الفرنسي بخاصّة، والأوروبي بعامّة، إذ كان هدف الفرنسيين من احتلالهم لسوريا عرقلة تطوّر العرب والحيلولة دون وحدتهم؛ لأنّ سوريا كانت مركز الحركة القومية العربية[4].

أما ميشيل عفلق، فلم يختلف كثيراً في تعريفه للأمة عما طرحه الأرسوزي، فهي في نظره "كيان روحي صرف كلي الوجود، وفائق القوة والإبداع، وهي التي تحثنا على

(1) الحصري، ساطع: الأعمال القومية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1985م، ص15، ص20–21.

(2) زريق، قسطنطين: الأعمال الفكرية العامة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1994م، المجلد الثاني، ص 35.

(3) يُنظر: محافظة، علي، أبحاث في تاريخ العرب المعاصر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2000م، ص 155.

(4) يُنظر: محافظة، علي، السياسة الفرنسية المعادية للوحدة العربية في سوريا ولبنان، (1920–1964) 1964) مجلة المستقبل العربي، العدد 58، (كانون أول، ديسمبر)، بيروت، 1983م، ص 39–51.

العمل والتضحية عندما نرتبط بها ونعيها بعمق" [1]. وأما القومية فهي في رأيه: تذكرٌ حي... وحب قبل كل شيء[2] وتجتمع آراء هؤلاء المفكرين على اعتبار اللغة أساساً في تكوين الأمة العربية، وأن هدف القومية هو تحقيق الوحدة العربية[3].

وفي هذا السياق حَذّر الأرسوزي من عوائق أخرى تحول دون الوحدة القومية، مثل: استغلال التنوع الاجتماعي والديني في سوريا والبلاد العربية فضلا عن حالة الخمول وضعف الشخصية. وللرد على كل نقاط الضعف تلك لا بُدَّ لأبناء الأمة من شحذ عزيمتهم وتوحيد صفوفهم من أجل بناء دولتهم القومية الواحدة في اليوم المرتقب، فيثبتون أنهم أبطالٌ حقيقيون[4].

ثالثاً: مفاهيم نهضوية متعلقة باللغة العربية

يعود للأرسوزي الفضل في تأسيس فكرة "البعث العربي" من خلال اهتمامه بأصالة اللغة العربية وعبقريتها، إذْ حاول إثبات أن العقل العربي هو جزء من "العقل المطلق"، وفهم "البعث" على أنه استجلاء للجوهر أو الأصل أو الحقيقة[5]. وهذا عائد إلى تأثره بالثقافة الصوفية التراثية والثقافة المثالية الأوروبية[6]. ومن الذين تأثر بهم المتصوف العربي المسلم محي الدين بن عربي (ت 638هـ/ 1240م) والمتصوف الألماني إيكارت

(1) عفلق، ميشيل: في سبيل البعث، دار الآداب، بيروت، 1963م، ص 51-52.

(2) المرجع السابق، ص29-30.

(3) الدوري، عبد العزيز، "ساطع الحصري في الفكر القومي"، الأعمال الكاملة للدكتور عبد العزيز الدوري، (11)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 2009م، ص 279-280.

(4) يُنظر: محافظة، علي، أبحاث في تاريخ العرب، ص 155.

(5) يُنظر: صفدي، مطاع: التجربة الناصرية والنظرية الثالثة، دار الحكيم، بيروت، 1973م، ص 40، وينظر كذلك صفوت، حاتم: "تطور الفكر القومي العربي عند جمال عبد الناصر وميشيل عفلق: دراسة مقارنة، مجلة الفكر، السنة 3، العدد 22، (أيلول/ تشرين أول، 1981م) ، ص 562.

(6) يُنظر: الجزائري، زهير، لمحات عن أديولوجيا البعث (1970-1980)، دار الساقي، بيروت، 1995م، ص 171.

Eckehart (1260 – 1327م)، والمفكر المثالي ليون برونشفيك Leon Bronschvinch (1869 – 1944)، والفيلسوف الصوفي هنري برغسون Henri Bergson (1859–1941م) [1].

ولما اعتمد مفهوم الأمة "المصطفاة"، فإنّه بحث مفهومها من خلال جوهرها الأصل، فضخّم ذاتها لتنوء بحمل عبء رسالتها في الحرية والتحرر والنهضة. من هنا أخذ على العرب أن مفهومهم للحرية ما يزال تقليدياً أو بدائياً، "إخلاص في النية وخلوصٌ من كل شائبة"[2]. وإن نقيضها سيكون "إنشاء الجّو الإنساني الذي تكشف فيه الحياة عن مكنوناتها، وفي تذليل الصعوبات التي تعترض سبيل الأماني القومية"[3].

ومن هذا المنطلق صاغ بعض المفاهيم النهضوية أو الشعارات القومية، وهي: الحرية والمساواة، وميز معناهما عمّا طرحته "الشيوعية" في مقولاتها حول "الحتمية"، الذي رآها عائقة للتطور والنهضة والتقدم[4]. في حين أن تلك المفاهيم أو الشعارات في معناها القومي تستند إلى الإبداع الفني والخلقي[5]. ودمج الأرسوزي مفهومي الحرية والمساواة بالديمقراطية والاشتراكية المعبّرة عن إبداع خاص منتج للعدل والأخلاق، مستمداً من اللغة دعائم أخلاقية لفكرته من جهة، ومبرهناً أن للأمة العربية رسالة أخلاقية رائعة وفريدة من جهة أخرى[6].

ولما كان الأرسوزي من المتأثرين بالفكر الليبرالي؛ فقد عدَّ الحرية والمساواة ركني الديمقراطية التي تحقق استقلال المواطن في تربيته ومعيشته وتقرير مصيره، في ظل

(1) ينظر: بركات، سليم، الفكر القومي وأسسه الفلسفية عند زكي الأرسوزي، ص 67–71، وكذلك ص 430– 436.

(2) صفدي، مطاع، التجربة الناصرية والنظرية الثالثة، ص 40–41.

(3) المؤلفات الكاملة، المجلد الثاني، ص 52.

(4) المصدر السابق، ص 254.

(5) المصدر السابق، ص254.

(6) المؤلفات الكاملة، المجلد الثاني، ص77–78.

تكافؤ الفُرص والعدالة وحق العمل، مكتفياً بدلالاتها العامة دون البحث في تفاصيلها النظرية أو مجالات تطبيقاتها العملية[1].

وأما التربية، فهي الوسيلة الفضلى في تحقيق أحلام العرب بالتحرر والوحدة، وهي التي تُذكي وعي الأمة، وتؤهل النُخب والقيادات أصحاب الإبداع وطلائع التقدم، وهم من استناروا بذاتهم قبل أن تشع نور رؤاهم على الآخرين"[2].

وبحث قيمة الأخلاق من باب السمة التربوية اللغوية، وضرب أمثلة من عدة كلمات مثل: وجد، وعقد، وبدن وغيرها، واشتقاقاتها الدالة على عبقرية اللغة العربية وسعة استعمالاتها، ومنها اشتق كلمة (العقيدة)، وعالج معنى لفظة "نية" و "النواة"؛ لإثبات مبدأ التطورّ والتقدّم، ولفظة "الهمة" التي تُفيد في تحقيق الإصلاح ليصل إلى معنى كلمة أخلاق في الاصطلاح العميق، فهي تكمن في "الحدس العربي"، وهي – بنظره أيضاً– فنّ إيجاد الحياة وإبداعها، وليس المعنى السلبي العائق للتطور "التقليد والتقوى"، وربط –أيضاً– مفهوم الأخلاق بالبطولة والنبوة أو القيادة[3].

وهاتان الفكرتان تملكتا الأرسوزي وأشغلتا ذهنه، وتناولهما كما تناولها المتصوفون في الإسلام، وأرجعهما إلى الينبوع الإلهي، وقابل بين فكرتي: الخير والشر، أو الرحمن مقابل الشيطان بصورتين متضادتين، فالرحمن هو رمز للبطل في الوجدان المنبثق بزعامته من صميم الأمة، والحامل لرسالتها والناصر للحق على الباطل، وهذا التوصيف مستمد من ثقافته التراثية، فهي قريبة من فكرة "المهدي المنتظر" الممتزجة بالنبوة في الموروث الإسلامي المعروف[4].

(1) محافظة، علي، أبحاث في تاريخ العرب المعاصر، ص 153–154.

(2) المرجع السابق، ص 154–155، كذلك عليوي، هادي حسن: الاتجاهات الوحدوية في الفكر القومي، المشرقي (1918– 1952) مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 20000م، ص 92–93.

(3) محافظة، علي، أبحاث في تاريخ العرب المعاصر، ص 96.

(4) المرجع السابق، ص 152.

وهكذا تُعدُّ التربية والأخلاق والقيادة الفذّة من أهم الوسائل المعّول عليها في تحقيق مشروع النهضة القومية، إذْ إن "القوى الإيجابية في الإنسانية لا تتيقظ ولا تفعل فعلها بصورة عامّة متساوية في كل أبناء المجتمع، وإنما تبرز في أفراد أو فئات معينة، وهم أصحاب الإبداع... وطلائع التقدم"(1). وأما وسائل التربية فهي كل مؤسسات الدولة والمجتمع من الأسرة إلى المدرسة مروراً بالهيئات الحكومية والحزبية والصحفية العاملة على نشر الثقافة القومية الصحيحة(2).

أكد الأرسوزي ضرورة انفتاح العرب على منجزات الحضارة العالمية؛ لأهمية تواصل الحضارات وتفاعلها وإثبات إمكانية تجاوز العرب لواقع تخلفهم الحضاري. من هنا عَرّف الحضارة بقوله: "أنها تشتمل على معنيين متداخلين هنا: المدنيّة والثقافة، وقصد بالأولى المنجزات المادية التي تحققت في التاريخ، وضرب أمثلة عليها بفنّ العمارة والأدوات المصنوعة كالسيّارة والطيّارة وغيرهما. وأما الأخرى فهي الثقافة، وهي المعارف أو الرموز المعنوية الدالة على المعاني الإنسانية والصادرة عن النفس التي يتشارك في إنمائها: اللسان والفن والتشريع"(3).

وللتدليل على مقولته السابقة أشار إلى مقدرة الإنسان العربي على الإبداع لاختراق قوى الطبيعة وتجاوزها، وانتهى إلى القول إن جوهر المسألة هو الفرق بين الواقع والطموح أو (الصبوة والجاذبية) (4)، وبعبارة أخرى قال: "إن منظور الأمة لا يُقاس بعدد السنين من تاريخها، بل بوعي أبنائها ووجودهم في سبيل تحقيق الأماني القومية"(5).

(1) محافظة، علي، أبحاث في تاريخ العرب المعاصر، ص 153.
(2) المرجع السابق، ص 153–154، كذلك عليوي، مرجع سابق، ص91_92.
(3) المرجع السابق، ص 153–154، كذلك: عليوي، مرجع سابق، ص 93.
(4) المؤلفات الكاملة، المجلد الثاني، ص 36.
(5) المؤلفات الكاملة، المجلد الثاني ، ص 34–35.

إن موقع القدرة على التطوّر لدى الأرسوزي يكمن أساساً في النفس (الوجدان)، حينما تتخلص من الأوهام بتجذّر الشعور (البدئي) في الوعي بالتواصل مع العلم، وبهما يكتشف العقل إمكانية التطّور على أسس علمية دقيقة، وهكذا تجتمع المعرفة (الرحمانية) وتتبلور في الذهن، وهي الكفيلة بإلغاء كل وهم أو سحر من الذهن العربي الطامح إلى التقدم[1].

ولفت ضمن هذا السياق إلى مسألة هامة هي: الخيال العلمي وضرورته في تطوير الإبداع في الحضارة، حتى إنه قاس مرتبة الإنسان بمقدار فُسحة الخيال التي تحرره، وتفتح أمامه مساحات وآفاق التقدم[2].

وفي سياق برهنته لقيمة الإبداع أكد أن غاية العلم هداية النفس إلى المعرفة، إذْ تجعل الإنسان حكماً في مصير الإنسانية يدفعها إلى رحاب المستقبل[3]، وخلص إلى أن تلك المهام مرهونة بقوة الإرادة، التي تنظم الرغبات وتحققها على أرض الواقع، وتخلق الإنسان العربي "الاستثنائي"، مشيراً إلى ضرورة عدم إغفال التطوّر الحضاري المادي والصناعي للأبعاد الأخلاقية؛ ليكون التطّور متوازناً، وعوّل –أيضاً– على ضرورة تقدّم العرب الصناعي شرطاً لنهضتهم المعاصرة[4]. ورأى الأرسوزي أن إبداع التطور نزعة إنسانية أصيلة يثبتها الإنسان بشعوره القومي دون أن يحتاج إلى أي تعليل منطقي، وإنما تؤكده الإرادة أو الصبوة [5].

يمكن القول أنّ الأرسوزي فتح المجال واسعاً أمام الدارسين والمهتمين باللغة العربية، حينما وقف على النزعة المثالية للكلمة العربية، والمغزى الثقافي للاشتقاقات

(1) المصدر السابق، ص 37–40.

(2) المصدر السابق، ص 37–40.

(3) المصدر السابق، ص 73.

(4) محافظة، علي، الاتجاهات الوحدوية في الفكر القومي العربي، ص 154_155.

(5) إسماعيل، صدقي: المؤلفات الكاملة، مطابع وزارة الثقافة، المجلد الأول، 1977م، ص 139.

اللسانية ذات الطابع الشعري، ومظاهر بلاغة العرب ومنزلتها البيانية، ووجهه الكلمة العربية التربوية والأخلاقية في بناء النهضة العربية المعاصرة.

رابعاً: تطبيقات لغوية (الكلمة العربية: اشتقاقها، شعريتها، بلاغتها).

انطلاقاً من إيمان الأرسوزي الراسخ بأصالة اللغة العربية، وتفوق كلمتها في القدرة على التعبير عن الأحاسيس والمشاعر الإنسانية بأدق معانيها وأبهى صورها، تحدّث بإسهاب، عن جذور الكلمة العربية واشتقاقها وشعريتها وبلاغتها مستشهداً بالشعر العربي الجاهلي؛ لأنه الأكثر جودة والأقرب زمناً من عصر نشأتها الأولى. وعدّ العصر الجاهلي عصر اللغة العربية الذهبي، في حين رأى مسار تطوّرها اللاحق مساراً سلبياً؛ لاختلاط العامية بالفصحى، وتأثرها باللغات الأعجمية الأخرى[1]؛ من هنا دعا العرب إلى ضرورة الالتزام الشديد بلغتهم الفصحى؛ ليتمكنوا من التعبير عن فكرهم وأداء رسالتهم الثقافية تجاه الإنسانية[2].

ولما كانت الكلمة العربية في حقيقتها استثماراً للحدس الأول، أو التقاطاً للعبارة الطبيعية في النفس؛ فإنه قسّم الكلمة العربية المشتقة إلى أُسر أو مجموعات لغوية؛ لتكون قواعد للأفكار: كالاقتران والمشابهة والتضاد، التي تتجلّى في النفس عندما تستجيب لمنبهات خارجية، وعندما يرتفع الإدراك الذهني إلى ما يتخطى المحسوس إلى المستوى الملموس في الحياة الاجتماعية[3].

وأورد أمثلة كثيرة منها: كلمة "حرية" و"حرارة"، وهما من المصدر نفسه، لكن الحرية هي الأصل، فلما شعر "الحّر" بالغيرة دبت فيه الحرارة"، ثم انتقلت تلك الحرارة إلى العقل فأنتجها صوراً ومعاني[4]؛ وهذا يدلل على براعته في استعمال الكلمة وتوظيفها في بلورة المفاهيم الفكرية والسياسية التي يريد ترسيخها في ذهن القارئ.

(1) المؤلفات الكاملة، المجلد الأول، ص 345_ 349.
(2) المصدر السابق، ص 349.
(3) المصدر السابق، ص 350_359.
(4) المصدر السابق، ص 358.

وتتجلّى الكلمة العربية –لديه– في شعريتها أي في معناها الذي يتألف من الإيقاع والخيال المرئي والصوت البياني، مستشهداً –أيضاً– بالقصائد الشعرية لفحول الشعراء الجاهليين –ذات الإيقاع والخيال المرئي– ممهداً لفكرة التجاوب الإيجابي "الرحماني" في ذهن المستمع لمضمون العبارة المستخدمة[1]، وقصد بالرحمانية الاتصال بين النفس والعالم عن طريق الحواس التي ترتقي إلى الخيال الذي تتشخص فيه الأوضاع الاجتماعية، وحصرها في عالم الروح والشؤون المثالية[2] ومن الأمثلة على الأصوات البيانية: صوت الفعل "خرّ" الماءُ خريراً، فالعلاقة بين الماء وما يحدثه من صوت يُشّكل قاعدة الاشتقاق. وأما تأثير الماء في مجراه خرجاً أو "خُروجاً" أو "خَرْقاً" فهو قاعدة ثانية في وجود الأفعال: خَربَ، خَرَجَ، خَرَقَ وذلك بإلحاقه حرف (ب) أو حرف (ج) أو حرف (ق) إلى صوت آخر[3]؛ ممّا يؤسس لتعدد معاني الكلمة الواحدة بين الإيجاب والسلب .

وتتميّز الكلمة العربية ببلاغتها، فهي مختصرة وموجزة، لكنها تؤدي معانيها إلى المتلقين بدقة ووضوح وبالإيحاء والتلميح. وفي رأيه أن البيان العربي يتناول الكلمة ذاتها وحروفها وحركاتها، بالإضافة إلى أسلوبها، فمثلاً كلمة (عبقري) منحوتة من كلمة (عَبَقَ) الزّهر، و"قرّ" فتدل على زهرة تنشر العطر بصورة دائمة. وهكذا بدأ الإبداع في الذهن العربي على مثال العطر الذي يُزين الزهرة[4].

وفي مثال آخر: كلمة "نبغ"، التي توحي بحروفها ونظامها أن الإلهام ينبثق من الشعور بشكل متعالٍ إلى ساحة الوجدان. وأما حروفها فيفيد كل منها بحسب طريقة حدوثه فالمعاني التالية: (ن) يعني الصميم، و (ب) الظهور، و (غ) الغيب. وكلمة

(1) المؤلفات الكاملة، المجلد الأول ، ص 350_351.
(2) المصدر السابق، ص 32.
(3) المصدر السابق، ص 352.
(4) المؤلفات الكاملة، المجلد الأول، ص 351، 362.

(ذُكاء) تعني الشمس، ويُعرف الذُّكاء كلمة في النفس من الناحية البيانية ذات الخيال الواسع، وهي الخاصة الفريدة التي تعرِّف المعاني المجردة وتوضحها[1].

إن ما سبق دليل على تمكن لغوي لديه فيه لمسات جمالية، وقوة استقرائية عالية تمتع بها الأرسوزي، وهي صادرة عن حبه العميق للغةِ العربية من جهة وللأمة التي أنتجتها من جهة أخرى.

الخاتمة:

تبين للدارسَيْن نتائج عديدة لعل أهمها:

إن للغة العربية منزلة رفيعة في ثقافة الأمة وفكرها كونها أداة المعرفة والعلم، ووسيلة ثقافة للتعّلم والتعليم والتطوّر الحضاري في كافة العصور.

أنجز الأرسوزي نمطاً خاصاً من التفكير العروبي الذي اختلف منهجه ومضمونه وآلياته عن التفكير الذي ساد في عصره بنسب متفاوتة، وإيجاد مفاهيم وأفكار ونظرة جديدة تقوم على النقد والمراجعة للفكر في إطار منظومة اللغة العربية وأنماطها، وأثبت أن الأمة العربية ستبقى في حاجة ماسة للغتها الأم؛ لإنجاز أهدافها بالتحرر والوحدة والتقدم الحضاري وفق أسس تربوية أخلاقية قيادية واضحة ذات نزعة إنسانية إبداعية.

ساهم الأرسوزي في الكشف عن أسرار اللغة العربية وجمالياتها الكامن في جذورها واشتقاقها وشعريتها وبلاغتها وكلمتها المعبرة عن الوعي القومي العربي الخلاّق، وتساميها وتعاليها؛ لاتخاذها أداة لتكريس الخطاب القومي النهضوي؛ لمّا للغة العربية من الاستحواذ على نمط الثقافة لحقب متتابعة قديماً وحديثاً، ودعم انتشارها في أوساط عامّة الناس إلى جانب النُخب الثقافية والسياسية في الوطن العربي.

طرح الأرسوزي فكرة استخدام منهج التفسير اللغوي للمفاهيم القومية والتحررية النهضوية في سبيل توضيحها وتعميقها في ذهن ووجدان الإنسان العربي.

(1) المصدر السابق، ص 363.

المصادر والمراجع

1. الأرسوزي، زكي: المؤلفات الكاملة، دمشق: مطابع الإدارة السياسية للجيش والقوات المسلحة، 1972–1974.
2. إسماعيل، صدقي: المؤلفات الكاملة، مطابع وزارة الثقافة، دمشق، المجلد الأول، 1977م.
3. بركات، سليم: الفكر القومي وأسسه الفلسفية عند زكي الأرسوزي، دار دمشق للطباعة والنشر، دمشق، 1979م.
4. الجزائري، زهير: لمحات عن أديولوجيا البعث (1970–1980)، دار الساقي، بيروت، 1995م.
5. الحصري، ساطع: الأعمال القومية، 3 أقسام، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1985.
6. حوراني، ألبرت: الفكر العربي في عصر النهضة، دار النهار للنشر، بيروت، 1977م.
7. خليل، أحمد خليل: دور اللسان في بناء الإنسان عند زكي الأرسوزي، دار السؤال للطباعة والنشر، دمشق، ط (2) 1981م.
8. الدوري، عبد العزيز: التكوين التاريخي للأمة العربية (دراسة في الهوية والوعي) مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1984م.
9. زُريق، قسطنطين: الأعمال الفكرية العامة، مركز دراسات الوحدة العربية، 1994.
10. صفدي، مطاع: التجربة الناصرية والنظرية الثالثة، دار الحكيم، بيروت، 1973م.
11. صفوت، حاتم: تطور الفكر القومي العربي عند جمال عبد الناصر وميشيل عفلق: دراسةٌ مقارنة، مجلة الفكر العربي، السنة 3، العدد 22(أيلول_ تشرين أول 1981).
12. عفلق، ميشيل: في سبيل البعث، دار الآداب، بيروت، 1963م.

13. عليوي، هادي حسن: الاتجاهات الوحدوية في الفكر القومي العربي المشرقي (1918–1952)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط (1)، 2000م.
14. محافظة، علي: أبحاث في تاريخ العرب المعاصر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2000م.
15ـ، موقف فرنسا وألمانيا وإيطاليا من الوحدة العربية (1919–1945)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1985م.
16.ـ، السياسة الفرنسية المعادية للوحدة العربية في سوريا ولبنان (1920–1964)، المستقبل العربي، العدد 58، كانون الأول (ديسمبر)، بيروت، 1983.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2011/10/23